النّسق الإبستمولوجيّ في شعر يحي بن حكم الغزال

Epistemological pattern in Yahia Ben Hakal Algazal's poems

طالبة الدكتوراه: معاش سامية.

د. بوعجاجة سامية

قسم اللغة والأدب العربي – جامعة محمد خيضر – بسكرة (الجزائر).
مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة.
Adab-arab@yahoo.fr
samia.maache@univ-biskra.dz

تاريخ الإيداع: 2020/04/10 تاريخ القبول: 2020/09/08

ملخص:

من خلال هذا المقال سنحاول الكشف عن العلاقة الخفيّة ذات التأثيرات المتبادلة داخل العمل الشّعري، وعلاقته بالحقل الإبستمولوجي في شعر يحي بن حكم الغزال، أحد أهم شعراء عصر الإمارة الأمويّة في الأندلس، من خلال ما تحتويه تجربته الشّعرية من معارف متعددة ذات صلة بالفلسفة والحكمة، معيدا صياغتها وفق منظوره الفلسفي الخاص محكّما وعْيه في تشكيل علاقات جديدة لما تقع عليه عيْنه. ولا يقف البحث عند تحديد هذه الأنساق الابستيمية في شعر الغزال، إنّما يسبر غورها في نصوصه الشّعرية ويربطها بالظروف المعيشة التي أحاطت بالشّاعر، فضلا عن الجانب الاجتماعي، المتعلق بميله إلى نقد المجتمع، ثم يطرح البحث أسئلة مهمة تحدّد طبيعة الأنساق الإبستمولوجيّة التي بنيّ عليها شعر الغزال، لينتهي إلى جملة من النتائج المستخلصة تكون خاتمة القول.

الكلمات المفتاحية: النّسق؛ الإبستمولوجيا؛ شعر؛ يحي بن حكم الغزال؛ الفلسفة؛ الحكمة.

Abstract:

In his article, we will try to explore the subtle interrelationships in poetry, and its interplay with the epistemological field in Yahia Ben Hakam Algazal's poems, who has been one of the most important poets in the Bani Ummayyad era. We will examine his poetic works through his long experience in poetry, along with various sources of philosophical

knowledge and wisdom, and which he had represented according to his own philosophical perspective by focusing on building new interconnected relationships. The research is not limited to determining these epistemological patterns in Al Ghazal's poems but, also, probes down into them in his poems and analyses them in the light of his social conditions, which he tends to criticize in his poems. We will, then, ask important questions that address the nature of the epistemological patterns that Algazal worked on in his poems. The research ends with crucial conclusions for the whole research work.

Key words: patterns; Epistemology; poetry; Yahia Ben Hakam; Philosophy; Wisdom.

مقدمة

نظر يحي بن حكم الغزال (250هـ) في ما يحيط به بمنظور جمالي، فاستطاع أن يجسّد تجربته الشّعرية ويعيد نظام الواقع وفق نظرة خاصة، اتّسمت بالحكمة والوعي بما يجري من حوله مشكلا علاقات جديدة مع واقعه انطلاقا من فلسفته في الحياة، وتفاعله مع أحداث عصره ومجتمعه.

وبقراءتنا لشعر الغزال ندرك دون كبير عناء، أنّ الشّاعر يمتلك رؤية خاصة ونظرة فريدة في الحياة جسّدها في شعره وفق أنساق ابستمولوجية فلسفية وحكمية، فجاء شعره وعاء انصهرت فيه الثقافة الواسعة والمعارف المكتسبة من عمره الطويل الذي ناهز المئة عام، فكانت خير رصيد انتهل منه شاعرنا انتاجه الشّعري، الذي يعكس مدى تأثره واستجابته للأحداث وتعليله للمواقف.

اعتمد البحث بالدرجة الأولى على شعره الذي جمعه ووثقه الدكتور علي الغريب محمد الشنّاوي وديوان يحي بن حكم الغزال الذي جمعه وحققه وشرحه الدكتور محمد رضوان الدّاية، وسنحاول من خلاله الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- ما طبيعة الأنساق الإبستمولوجية في شعر يحي بن حكم الغزال؟
- وما الغاية التي يتوسم الشّاعر تجسيدها من خلال هذه الأنساق؟

تعريف النّسق:

إن تعريف النّسق في المعاجم العربية لا يختلف عن معنى النظام من خلال الرجوع إلى مادة (نَسَقَ) حيث أورد صاحب لسان العرب كلمة (نسق) في معجمه فقال: " نَسَقَ: النَّسَقُ من شيء: ما كان على طريقة نظام واحد، عامٌّ في الأشياء، وقد نسَّقته تنسيقا، ... نسَّقَ الشيءَ ينسقُهُ نسْقا ونسَّقَهُ نظَّمهُ على السواء، وقد انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض أي تنسَّقت"[1].

وورد تعريف النّسق في معجم الرائد بأنّه: "نَسَقَ يَنْسِق: نَسْقًا: ما كان على طريقة نظام واحد من كل شيء والنّسق، حروف العطف"[2]، "نَسَقْتُ الكلام نسقا: عطفت بعضه على بعض"[3].

أمّا في الاصطلاح فيعرف النّسق على أنّه نظام متكامل "يعمل على بلورة منطق التفكير الفنّي والجمالي في النّص، كما يحدّد الأبعاد والخلفيات التي تعتمدها الرؤية"[4].

إذن فهو ذلك الكلّ المتكامل الذي يربط بين عناصر وأجزاء النّص المتداخلة مع بعضها البعض، وتبعا لذلك "يمكن أن نصف أيّ نصٍّ بأنه نسق، لأنّ النص هو عملية تركيبية بين مجموعة من العناصر المنسجمة فيما بينها، والتي تتفاعل وتتشارك ... لتشكيل الوحدة الكليّة أو النّص"[5].

فالأنساق الشّعريّة تتكون من أنساق داخلية تتفاعل لتشكل لنا بنية النص الشعري وأنساق خارجية محيطة تتمثل في أبعاد الشاعر الفكرية والنفسية وكذا بيئته الاجتماعية وغيرها من المؤثرات الخارجية.

فالنّص إذن "وحدة تتكون من أجزاء أو وحدات متباينة ومتماسكة معًا، وكلّ وحدة معتمدة على الوحدات الأخرى ... والارتباط القائم بين الأجزاء يتولّد عنه خصائص تختلف عن خصائص الأجزاء الأساسية، واللغة الشعرية مثال على ذلك؛ حيث أنّ اللغة كنسق تختلف خصائصها عن خصائص العناصر المكوّنة لها، وكذلك الصّورة الشعرية تختلف عن العناصر المكوّنة لها؛ لو تمّ تحليل كل عنصر على أنّه نسق قائم بذاته، فإنّ أي تغيير يطرأ في أيّ جزء من أجزاء النّسق يؤثر على بقيّة أجزاء النسق وعلى النسق ككل ... لأنّ القصيدة عمل منسجم يقوم على تفاعل عناصره المكونة للقصيدة"[6].

تعريف الإبستمولوجيا:

تعتبر الإبستمولوجيا منهجا جديدا في الدراسات والأبحاث التي تتخذ من المعرفة موضوعا لها لذلك تنوعت تعريفاتها حسب ميدان البحث الخاص بها.

والابستمولوجيا مصطلح مشتق من الكلمة اليونانية (*Episteme*) وتعني: المعرفة أو العلم ولفظ (*Logos*) الذي يعني: نقد أو نظرية أو دراسة[7]، أيْ أنّ الابستمولوجيا تعني حرفيًّا (نظرية المعرفة) "التي تهتم بالدراسة النقدية لمبادئ العلوم المختلفة وفروضها ونتائجها، وتهدف إلى تحديد أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية"[8].

أمّا في الاصطلاح فنجد اختلافا ملحوظا في التعاريف المتعلّقة بالابستمولوجيا، ولكن يمكن لنا أنْ نأخذ بالتعريف القائل أنّ: الابستمولوجيا معناها الحرفي نظرية المعرفة وهي عبارة عن تفكير فلسفي في العلم، تبلور عندما تبيّن للفلسفة نسبيّة العلم في الزّمان وفي المكان أيْ أنّه مجرد ابتداع ذاتي عقلي في أغلب الأحيان مثلها مثل الفنون والآداب، ومباحث الابستمولوجيا ليست فلسفية، ولا علمية بل هي بين البين، تأخذ من العلم منهجيته ومن الفلسفة فكرها، والابستمولوجيا تهتمّ شديد الاهتمام بالوسائل الذاتية والموضوعية على السّواء، التي تستعملها العلوم لتتبلور وتتكامل سلبا أو إيجابا، أفقيا أو عموديًّا[9].

إذن فالابستمولوجيا لا تهتم بمعرفة دون أخرى إنما هي شاملة لجميع الميادين تتجاوز كل العلوم لتشمل الإدراك البشري بشكل عام.

إنّ الأنماط الفكرية في شعر (يحي بن حكم الغزال)تعدّ نسقا هاما لا مناص من الوقوف عنده وذلك لمعرفة عالمه الشّعري، فدراسة الأنساق الفلسفية والحكمية كفيل للكشف عن الوعي الفني بواقع الأدب العربي الأندلسي الذي تنوّع عند الغزال فشمل المدح و الغزل و السياسة ليتحوّل إلى وعي وجودي فلسفي حكمي متأمّل في منزلة الإنسان ومصيره المحتوم، فجاءت هذه التأملات وفق نسق ابستمولوجي كلّيّ تنتظم فيه البنية الشّعرية عند الغزال حاملة رؤيته عبر توظيفه لمجموعة من المعارف داخل نصوصه ليصبح النص دالّا، ومدلولا في الوقت ذاته، لأنّ ثمّة دالّات لغوية ولفظيّة تحيلنا إلى ما هو خارج النّصّ، كما أنّ البنية النصيّة تجعل المعنى مرتكزا على تلك الدوال ليتبادلا التأثر والتأثير في عملية التلقي.

ومن هذه الأنساق نذكر:

النّسق الفلسفي:

إن العلاقة بين الشّعر والفلسفة، علاقة قديمة لا يمكن الفصل فيها بين الإنتاج الفكري والإنتاج الشّعري، وهذا ما نفهمه من قول (جان فال): "إنّه لا يوجد في حقيقة الأمر فرق جوهري بين الفلسفة والشعر، وفي أحيان كثيرة كان من بين الفلاسفة شعراء موهوبون كأفلاطون وسارتر"[10].

إذن فكلاهما نمط معرفي غايته التأثير في الآخر وإحداث التغيير فيه بغية الوصول إلى قناعة تحرك سواكن العقول.

وفي شعر يحي بن حكم الغزال ما يؤسس لتجربته الشّعرية ويعيد نظام الواقع وفق منظوره الخاص مشكّلاً علاقات جديدة لواقعه وما تقع عليه عينه، ليعطي بُعدًا جديدًا للمعرفة والإدراك.

1- فلسفة الرّفــض:

إن حالة الرّفض عند يحي بن حكم الغزال تشكّلت بعد تراجع أمنياته واصطدامه بواقع حياته فعبّر عن حالة الضّيق والاغتراب الشّعوري و تفاهة ما يراه في الواقع من خلال فلسفة الرفض، فرفض القيود وحطّم الأغلال متوجّها إلى الانعتاق والحريّة.

والرفض كلمة تعني: ترْكُ الشيء وهذا ما ورد في لسان العرب لابن منظور "الرفض: ترَكَ الشيءَ، تقول رفضني فرفضته، رفضت الشيء أرفضه رفضًا تركته وفرقته"[11].

ومعنى الرفض في الاصطلاح لا يختلف عن معناه اللغوي، وهو المصطلح الذي ترسّخ في ذهن شاعرنا يحي بن حكم الغزال بمعناه ترك الواقع ورفضه والانعتاق منه.

ومن صور الرفض عند شاعرنا دعوته إلى الابتعاد عن الخمرة أم الخبائث وانتهاج الطريق الصحيح هروبا من وسخ الدنيا إلى الحب الإلهي السّامي في قوله[12]:

وَبِاللهِ لَوْ عَمَّرْتَ تِسعِيـــــنَ حَـجَّـةً إِلَى مِثْلِهَا مَا اشْتَفْتُ فِيهَا إِلَى الخَمْرِ
وَلَا طَابَتْ نَفْسِي إِلَى مزهـــــــر وَلَا تَحَنَّنَ قَلْبِي نَحْوَ عُـــــــودٍ وَلَا زَمْرٍ
وَقَدْ حَدَّثُونِي أَنَّ فِيهَا مَـــــــــرَارَةً وَمَا حَاجَةُ الإِنْسَانِ فِي الشُّرْبِ لِلْمُرّ
أَخِي عُدَّ مَا قَاسَيْتَهُ وَتَقَلَّـــــــــبَتْ عليك به الدنيا من الخمــر والشرّ
فَهَلْ لَكَ فِي الدُّنْيَا سِوَى السَّاعَةِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا السَّرَّاءُ أَوْ حَاضِـــرَ الضُّرّ

فالشّاعر يرفض اتباع الخمرة المؤدية إلى هاوية الجحيم حتّى وإن عاش تسعين حجّة أخرى لأنها تؤدي إلى العذاب فهو بذلك يصبو إلى الحياة السّعيدة التي لا تتحقق إلّا بقرب الله عزّ وجلّ.

ثمّ نجد الغزال يتحدّث عن ثورته على الاطلال؛ إذْ نراه يرفض أن يجري قصائده مجرى الأعراب من وصف الصحاري الغبراء، والبكاء على الأطلال ووقوفه متأملا جزعا، وذلك عند مدح الأمير الذي قصرت عنه الصفات، فيقول[13]:

لمْ أُجْرِ فِيهَا مِنَ الأَغْرَابِ وَصْـــفَهَـمْ تِلْكَ المَهَامَةَ مُغْبِرًا فَيَافِيـــــــهَا
وَلَا بَكَيْتُ عَلَى أَطْلَالِ مَنْزِلَـــــــةٍ قَفرٍ تُوَارِدُ فِيهَا العَيْنُ صَبِيـــــهَا
وَلَا رَمَيْتُ بِطَرْفِي إِثْرَهَا جَزَعًـــــا قَدْ شَفَّ نَفْســـي فِي زَعْمِي تَصَابِيهَا
أَبُو المطرّف بَادِيَ كُلّ مَكْرُمَـــــــةٍ نُعِدُّهَا لِكَرِيمٍ أَوْ نُسَمِّيـــــــــهَا
لَكِنْ قَصَدْتُ إِلَى مَدْحِ امْرِئٍ قَصُرَتْ عَنْه ،الصِّفَاتُ فَلَمْ تَبْلغْهُ تَشْبِيـــهَا

فهذه الأبيات يؤكد فيها شاعرنا رفضه التّام للوقوف على الأطلال في قصائده المدحيّة فهي إذن ثورة على النسق البنائي للقصيدة العربيّة القديمة.

ومن الظّواهر الاجتماعية التي رفضها الغزال وأبدى استياءه منها مباهاة الأغنياء على الفقراء في بناء قبورهم، لأنّ الجميع سواسية عند الله تعالى فيقول[14]:

أَرَى أَهْلَ اليَسَارِ إِذَا تُوَفُّـــوا بَنَوْا تِلْكَ المَقَابِرَ بِالصُّـخُورِ
أَبَوْا إِلَّا مُبَاهَـــــــاةً وَفَخْرًا عَلَى الفُقَرَاءِ حَتَّى فِي القُبُـورِ
فَإِنْ يَكُنْ التَّفَاضُـــــلُ فِي ذُرَاهَا فَإِنَّ العَدْلَ فِيهَا فِي القُــعُور

إنّ هذا الرّفض يمثل موقفا اجتماعيا وأخلاقيا، وهذه الأبيات تكشف عن مدى تمرّد شاعرنا على تلك الظواهر الاجتماعية السّائدة في عصره.

ويكرّر هذا الرّفض في بعض الجزئيّات الاجتماعية، منتقدا نظرة المجتمع إلى الشيخ الغني وتفضيلهم له عن الشاب الفقير حين يقول[15]:

وَخَيَّرَهَا أَبُوهَـــــا بَيْنَ شَيْخٍ كَثِيرِ المَالِ أَوْ حَـدَثٍ فَقِيرِ
فَقَالَتْ خَطّتَا خَسْفٍ وَمَا إِنْ أَرَى مِنْ حظُوةٍ لِلْمُسْتَخِيرِ
وَلَكِنْ إِنْ عَزَمْـتُ فَكُلُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَجْـهِ الكَبِيرِ
لِأَنَّ المَرْءَ بَعْدَ الفَـــقْرِ يَثْرَى وَهَذَا لَا يَعُودُ إِلَى صَـــغِيرِ

ففي هذه الأبيات حوار لطيف، تخيّله الشاعر بين أبٍ وابنته يتشاوران في أمر زواجها، فترفض الفتاة الانسياق وراء تفاهة النّظرة الاجتماعية لتختار الشّاب الفقير لأن مرحلة الشباب لن تولد ثانية عند الغني، أمّا الغنى فقد يضرب ساحل الفقير يوما ما.

2. فلسفـة الزّهـد:

من خلال قراءتنا لشعر الغزال نجد له زهديات كثيرة تعكس أصداء التقوى في نفسه وهي على مشارف الشيخوخة وترصد خبرته في معاملة الناس، وقد دعا كثيرا

في شعره إلى الزهد ومن ذلك قصيدته التي يدعو فيها إلى عدم الشكوى لغير الله، ويرسم فيها حدود الزهد في نظره يقول[16]:

أَيُّهَا الشَّـــــــاكِي إِلَى مَنْ لَيْسَ فِي كَفَّيْهِ جَـــــدْوَى
إِنَّ شَـــــــــكْوَاكَ إِلَيْهِ لَيْسَ تُغْنِي عَنـــــْكَ شَيَّـا
فَاسْـــــــأَلْ اللهَ فَـلَا أَقْ رَبَ مِنْهُ حِينَ يُدْعَـــــى
وَارْضَ بِالقُـــــوتِ فَإِنَّ الْ قُوتِ فِيهِ كُلُّ مُكَفَّـــــى
لَسْـــــــتَ تَحْتَاجُ مَعَ الْمَا إِلَى شُرْبِ المُضَـــــــرَّى
لَا وَلَا مَعَ جُبَّةِ الصُّـــــــو فِ إِلَى الخَزِّ المُوَشَّـــــى
وَالعَصَـــــا فِي الكَفِّ تُغْنِيـ ـكَ عَنِ السَّيْـــفِ المُحَلَّى

فالغزال يحضّ على الزهد والتقشّف ويدعو إلى الرضا بالقوت، والاعتدال في الملبس والتواضع في السّير.

تميّز شاعرنا بنظرة خاصة تجاه الكون والحياة، وقد جسّد ذلك من خلال فلسفته في الزهد ودعوة الناس إليها؛ إذ يرى أن من عرف مصيره في الدنيا هان عنده أمرها وزهد، فمهما طال العمر إلّا وله نهاية محتومة يقول[17]:

كَمْ يُرِيدُ المَـــــــرْءُ قَدْ أَرْ بَى عَلَى السَّبْـعِينَ يَبْقَى
هَيْكَ عِشْـــــتَ الدَّهْرَ حَتَّى يَنْفَدَ الدَّهْـــــرُ وَيَفْنَى
أَوْ مَا قَصَـــــــرَكَ مَنْ ذَا كَ إِلَى أَنْ تُتَـــــــوَفَّى

وقد حملته فلسفته في الزهد على الوقوف من الناس موقف المرتاب المشكك، فالناس في نظره لا ثقة فيهم يقول[18]:

لَا وَمَنْ أعمل المـطايا إليه كُلّ مَنْ يَرْتَجِي إِلَيْهِ نَصِيبَا
مَا أَرَى هَاهُنَا مِنَ النَّاسِ إِلَّا ثَعْلَبًا يَطْلُبُ الدَّجَاجَ وَذِيبَا
أَوْ شَبِيهًا بِالقِطِّ أَلْقَى بِعَيْنَيْـ ـهِ إِلَى فَأْرَةٍ يُرِيـــــدُ الوُثُوبَا

إذن فانعدام ثقة الغزال في البشر جعلته يرى الناس إمّا: ثعلبا ماكرا، أو ذئبا ضاريا أو قطّا يريد الوثوب.

وللغزال قصيدة تأملية في الحياة والزمن تبرز لنا جانب التّوبة والندم عند الشاعر يقول[19]:

مَهْلًا فَلَيْسَ العَدْلُ مِنْ شَانِي لَسْتُ عَنِ اللَّذَّاتِ بِالـوَانِي
مَضَتْ ثَلَاثُونَ عـلَى مِثْلِـــهَا لِي وَثَلَاثُونَ وَثِنْـــــــتَانِ
وَالثُّلُثُ مِنْهَا فِي سَبِيلِ الصِبَا وَفِي المَعَاصِي ثُلُثُهَا الثّـــَانِي
وَالثُّلُثُ الثَّالِـثُ فِي غَمـــْرَةٍ قَلَّ بِهَا بِرِّي وَإِيمَـــــــانِي
فَانْقَرَضَ العُمْرُ وَمَا فِي يَدَيَّ مِنْ كُلِّ هَذَا غَيْرَ خُسْـــرَانِ
وَكُلّ شَيْءٍ غَيْـــرَ مَا كَانَ لِلَّ ـهِ مِنَ الدُّنْيَا لِبُطْـــــــلَانِ
لِي جَسَـــــــدٌ بَالٍ وَلَكِنّمَا رُكِّبَ فِيهِ رُوحُ شَيْـــــطَانِ

نرى شاعرنا في هذه الأبيات يعترف في أوّلها باقترافه الذنوب والمعاصي من اتباع للذات وترك البرّ والإيمان، إلى أن انقرض العمر فخسر كل شيء.

النّسق الاجتماعي. :

نرى الغزال في هذا اللون الشعري يتناول نقد المجتمع وما انتشر فيه من فساد معبّرا عن رفضه لهذا النمط من الانحطاط فقد كان عصر شاعرنا غارقا في التفسّخ الاجتماعي والانحلال الخلقي، وطبيعي أن ينظر إلى مجتمعه بهذا المنظار لذلك راح ينتقده.

ومن صور النقد الاجتماعي في شعره تصويره لنا ألسنة الناس بالأفاعي، التي تمتلك القدرة على اللّدغ والاغتيال وهي صورة توحي بأثر اللّسان في تحطيم العلاقات الإنسانية فيقول[20]:

النَّاسُ خَلْـقٌ وَاحِدٌ مُتَشَـــــابِهُ لَكِنَّمَا تَتَخَالَفُ الأَعْمَـــــالُ
وَيُقَالُ حَقٌّ فِي الرِّجَالِ وَبَاطِـــلُ أَيُّ امْرِئٍ إِلَّا وَفِيهِ مَقَـــــالُ
وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ بِمَا فِي نَفْسِـــــــهِ مَنْ عَيْبُهُ عَنْ غَيْرِهِ أَشْغَـــالُ
يَسْتَثْقِلُ اللمم الحفيف لغيـره وَعَلَيْهِ مِنْ أَمْثَالِ ذَاكَ جِبَـالُ
وَيَنَامُ عَنْ دُنْيَاهُ نَوْمَةَ قَانِـــــعٍ بِنَعِيمِ دُنْيَاهُ وَذَاكَ خَيَـــــالُ
وَرَأَيْتُ أَلْسِنَةَ الرِّجَالِ أَفَاعِـــيًا طَوْرًا تَثُورُ وَنَارَةً تَخْتَـــــالُ
فَإِذَا سَلِمْتَ مِنَ المَقَالَةِ غَيْرَ مَا تَجْنِي فَأَنْتَ الأَسْعَدُ المِفْضَالُ

توحي لنا هذه الأبيات عن تجربة الغزال في الحياة؛ تلك التجربة التي امتدت به ما يزيد على التسعين عاما ممّا جعله يمتلك القدرة على تمييز الناس، مقرّرا أن أيّ إنسان لا يخلو من العيوب، ورغم ذلك نراه مشغولا بعيوب الناس ونقائصهم.

ورصد الغزال في موضع آخر التغيير الذي يطرأ على الإنسان، عندما يصبح سلطانا يقول[21]:

وَإِنْ أُعْطِيتَ سُلْطَـــانًا فَحَاذِرْ صَوْلَةَ الزَّمَــنِ
أَخُو السُّلْـطَانِ مَوْصُوفٌ بِحُسْنِ الرَّأْيِ وَالفَطْنِ
فَسَـــــاعَةَ مَا يُزَايِلُهُ رَمَاهُ النَّاسُ بِاللَّعْـــنِ
وَيُصْبِحُ رَأْيُهُ المَحْمُـــو دُ مَنْسُوبًا إِلَى الأَفْـــنِ
وَتُبْصِر في مطيتـــــه سُقُوطَ العَيْنِ وَالأُذْنِ
وَتَسْتَرْخِي مَفَاصِـــــلُهُ وَتَكَسَّى كُسْوَةَ الحُزْنِ
كَأَنَّ بِشَاشَةَ السُّلْـــطَا نِ حِينَ تَزُولُ لَمْ تَكُنِ

فالشاعر يوازن في هذه الأبيات موقف الإنسان قبل أن يعتلي منصب السلطان وموقفه بعد أن يترك السلطة.

النّسق الحكمي:

حِكمُ الغزال عبارة عن مجموعة آراء وخواطر سائحة جاءت وليدة الفكر المثقّف الذي يجول في كل مكان، و عصارة خبرة عميقة في الحياة ناتجة عن عمر طويل واختلاط بأصناف مختلفة من الناس وإدراك مشكلات الحياة، فنجده يطالعنا بإنسانيّة وعظية حِكمية نابعة من تلك الخبرة ومن ذلك العمر الطويل الذي قارب القرن، محاولا دعوة الناس إلى فهم حقيقة هذه الدنيا الزائلة التي لا يأخذ الإنسان منها شيئا سوى التراب، والدعوة إلى التفكير في الحساب الإلهي وأنّ الإنسان مهما عاش من سنين عمره لا بدّ أن يساق يوما إلى الموت، وعلى العاقل أنْ يتّعظ لما آلتْ إليه حالته ليعرف أنّ الموت آتٍ لا ريب فيه، فقد صار الشاعر شبحا بعد كل ذلك الجمال والبهاء فلم يبْقَ منه إلّا الاسم يقول[22]:

أَلَسْتَ تَرَى أَنَّ الزَّمَـــــانَ طَوَانِـي وَبَدَّلَ خَلْقِي كُـــــــــــلّهُ وَبَرَانِي
تَحِيفُنِي عُضْوًا فَعُضْـــــوًا فَلَمْ يَـدَعْ سِوَى اسْمِي صَحِيـحًا وَحْدَهُ وَلِسَانِي
وَلَوْ كَانَتْ الأَسْمَاءُ يَدْخُلُهَا البَـــــلَى لَقَدْ بَلِيَ اسْمِي صَحِيحًا وَحْدَهُ وَلِسَانِي
وَمَا لِي لَا أَجْلَى لِتِسْعِينَ حَجَّـــــــةٍ وَسَبْعٍ أتتْ مِنْ بَعْـــــــدِهَا سَنَتَانِ
إِذَا عَنَّ لِي شَخْصٌ تَخَيّلَ دُونَـــــــهُ شَبِيهَ ضَبَابٍ أَوْ شَبِيهَ دُخَـــــــانِ
فَيَا رَاغِبًا فِي العَيْشِ إِنْ كُنـــْتَ عَاقِلًا فَلَا وَعْظَ إِلّا دُونَ لَحْظِ عَيَـــــانِ

ولقد وقف الشّاعر من الدّهر موقف العداء إذْ أنّ المعركة بينهما أزليّة والخاسر الوحيد فيها دوما هو الإنسان لضعفه أمام سطوة الدهر وجبروته، فصروف الدّهر لن ينجو منها أحد، يقول[23]:

مَنْ ظَنَّ أَنَّ الدَّهْرَ لَيْسَ يُصِيبُهُ بِالحَادِثَاتِ فَإِنَّهُ مَغْـــرُورُ
فَأَلْقِ الزَّمَانَ مُهَوِّنًا بِخُطُوبِـــهِ وَانْجَرَّ حَيْثُ يَجُرُّكَ المَقْدُورُ
وَإِذَا تَقَلَّبَتْ الأُمُورُ وَلَمْ تَـــدُمْ فَسَوَاءٌ المَحْــزَونُ وَالمَسْرُورُ

فهذه الأبيات الممزوجة بالحكمة يشير فيها الغزال إلى أنّ مصائب الدّهر لا تعرف كبيرا ولا صغيرا ولا حزينا ولا سعيدا، فكلهم سواسية في تقلبات الدّهر ومصائبه.

اتّصف الغزال بالحكمة وجودة الرأي وحسن البصيرة وهذه الصفات النفسية جعلته مستشارا لبعض القضاة، أو بتعبير الأندلسيين "مشاورًا"، يقول الغزال[24]:

يَقُولُ لِي القَاضِي مُعَاذُ مُشَـــاوِرًا وَوَلَّى امْرِئً فِيمَا يَرَى مِنْ ذَوِي العَدْلِ
فَدَيْتُكَ! مَاذَا تَحْسَبُ المَرْءَ صَانِعًا فقلتُ: مَاذَا يَفْعَلُ الدُبُّ بِالنَّحْـــلِ
يَدُقُّ خَلَايَاهَا وَيَأْكُلُ شَهْدَهَـــا وَيَتْرُكُ لِلذُّبَّانِ مَا كَانَ مِنَ الفَضْـــلِ

ففي هذا الشعر نجد القاضي (معاذ بن عمان الشعباني)* يطلب رأي الغزال في هذين الرجلين اللذين ولآهما أحباسه (أوقافه) في قرطبة، فخانا الأمانة، ونهباها وقد كان معاذ يحسن الظنّ بهما، فخاب ظنّه، وكان رأي الغزال فيهما أنّهما مثل الدبّ يأكل العسل ويقتل النحل، وهذا أسوأ وصف لهذين الرجلين غير الأمينين.

خاتمة:

من خلال ما تقدم ذكره يمكن أن نخلص إلى جملة من النتائج نذكر منها:

- كان يحي بن حكم الغزال داعية وحكيما وفيلسوفا وهذا ما انعكس في شعره من خلال النسق الفلسفي والحكمي.
- استطاع نقل رؤيته الخاصة للواقع وعبّر عن رفضه لبعض القوالب الاجتماعية السّائدة في عصره.

- استثمر الغزال تجاربه ومعارفه وانفعل مع واقعه وأدرك التناقضات التي سادت عصره ودعا إلى الزهد وترك الدنيا الزائلة.
- بنى الغزال قصائده على أوزان تقليدية ولم يخرج عن أوزان الخليل المعروفة.

هوامش الدراسة:

[1] ابن منظور الإفريقي المصري أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دط، 2003م، مادة نسق، ص 4411.

2 جبران مسعود، الرائد معجم لغوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1964م، ص 1499.

3 محمد عبد الكريم الحميدي، السياق والأنساق، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 2013م، ص 32.

4 علّوش سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، الدار البيضاء، ط1، 1985م، ص211.

5 محمد فتاح، التشابه والاختلاف، المركز الثقافي في المغرب، لبنان، ط1، 1996م، ص9.

6 طارق ثابت، النسق الشعري وبنياته في شعر أحمد الطيب معّاش، رسالة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2013/2012م، ص34.

7 ينظر: الشاذلي الساكر، الابستمولوجيا، كتاب الباكالوريا، مطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، دط، 1984م، ص28.

8 عادل السكري، نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة، تقديم حامد عمار، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1999م، ص28.

9 ينظر: الشاذلي السّاكر، الابستمولوجيا، مطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، د ط1984، ص 28.

* الفيلسوف الفرنسي جان فال هو أول من صنّف الفلسفة المعاصرة إلى فلسفة تحليلية تغلب عليها الوضعية، من مصنفاته: الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر.

10 بوخيسنكي جوزف: مدخل الفكر الفلسفي، ترجمة محمود زقزوق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1991م، ص16.

11 ابن منظور، لسان العرب، مادة (رَفَضَ)، ج2، ص4000.

12 د. محمد صالح البنداق، يحي بن حكم الغزال، دار الآفاق.

13 علي الغريب محمد الشناوي، شعر يحي بن حكم الغزال، مكتبة الآداب، 42 ميدان الأوبرا، ط1، 2004م، ص28.

14 د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص61.

15 المصدرنفسه، ص62.

16 علي الغريب محمد الشناوي، شعر يحي بن حكم الغزال، ص98، ص99.

17 المصدر نفسه، ص99.

18 المصدر نفسه، ص100.

19 المصدر السابق، ص101.

20 المصدر نفسه، ص103.

21 المصدر نفسه، ص 102.

22 د. محمد رضوان الداية، ديوان يحي بن حكم الغزال، ص62.

23 د. علي الغريب محمد الشناوي، شعر يحي بن حكم الغزال، ص187.

24 أبو عبد الله محمد بن الحارث الخشني، قضاة قرطبة، الدار المصرية للتأليف والنشر، 1966م، دط، ص56.

* معاذ بن عثمان الشعباني، من أهل جيّان، كان قاضيا بقرطبه سبعة أشهر ثم عزل وعرف بصحة الضمير وسلامة القلب، ينظر: الديوان، ص 47.

المصادر والمراجع

بوخيسنكي جوزف. (1991). *مدخل الفكر الفلسفي*. (محمود زقزوق، المترجمون) القاهرة، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية.

جبران مسعود. (1964). *الرائد - معجم لغوي*. بيروت: دار العلم للملايين.

جميل صليبيا. (1982). *المعجم الفلسفي*. بيروت: دار الكتاب اللبناني.

الشاذلي الساكر. (1984). *الابستمولوجيا*. تونس: مطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم

طارق ثابت. (2013). النسق الشعري، وبنياته في شعر أحمد الطيب معّاش. *رسالة دكتوراه*. باتنة، باتنة، الجزائر: جامعة الحاج لخضر - باتنة.

أبو عبد الله محمد بن الحارث الخشني، قضاة قرطبة، الدار المصرية للتأليف والنشر، 1966م، دط

عادل السكري. (1999). *نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة*. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

علّوش سعيد. (1985). *معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة*. الدار البيضاء: دار الكتاب اللبناني.

علي الغريب محمد الشناوي. (2004). *شعر يحي بن حكم الغزال*. 42 ميدان الأوبرا: مكتبة الآداب.

محمد رضوان الداية. (1993). *يحي بن حكم الغزال*. بيروت: دار الفكر المعاصر.

محمد صالح البنداق. (بلا تاريخ). *يحي بن حكم الغزال*. دار الآفاق.

محمد عبد الكريم الحميدي. (2013). *السياق والأنساق*. بيروت: دار النفائس.

محمد مفتاح. (1996). *التشابه والاختلاف*. لبنان: المركز الثقافي في المغرب.

ابن منظور الإفريقي المصري أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم. (2003). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.